الأديب
العدد رقم 10
1 أكتوبر 1973





عبد القادر عياش

عبد القادر عياش

الباحث الفولكلوري والمؤرخ الفراتي

بقلم حسان الكاتب

* * *

الاستاذ عبد القادر عياش باحث ومؤرخ . ولد بمدينة دير الزور حاضرة الفرات بسورية عام ١٩١١ لوالد يدعى السيد عياش الحاج الحسين من أسرة أبي عبيد .

عاش طفولته في القرية وفي دير الزور .. وتعلم في مكاتبها ومدارسها الابتدائية . وانتقل الى الكلية الاسلامية في بيروت . فحصل على الشهادة الابتدائية ، ثم انتقل الى المدرسة الانجيلية الوطنية في حمص وحصل منها على شهادة المتوسطة ، ولم يكن فيها تعليم ثانوي . فانتقل الى المعهد العربي الفرنسي بدمشق (معهد الحرية) واتم فيه دراسته الثانوية سنة ١٩٣٢ .

وفي عام ١٩٢٥ نفت السلطة الافرنسية أسرته الى بلدة جبلة على الساحل السوري بتهمة التحضير لنشر الثورة في الفرات لمساعدة الثورة السورية في جبل العرب وفي غوطة دمشق . وقبض الفرنسيون على أخويه محمد ومحمود و (١٣) رجلا من ريف الفرات وبعد تعذيبهم قدموهم الى محكمة افرنسية بحلب . وحكمت المحكمة على أخيه محمود ورفاقه بالاعدام رميا بالرصاص ونفذ فيهم الحكم بحلب ، وحكمت المحكمة على أخيه محمد بالنفي وتوفي والده في منفاه بعد ستة أشهر . وامتد هذا النفي اربع سنوات .

درس الحقوق بجامعة دمشق وحصل على اجازة الحقوق عام ١٩٣٥ . وتدرب بدمشق . تزوج سنة ١٩٣٦ ، وله سبعة اولاد ذكور واناث .

زاول المحاماة بدير الزور مدة سنتين وعين قاضيا عقاريا في حلب سنة ١٩٣٧ وانتقل الى معرة النعمان ، ثم الى دير الزور ثم الى دمشق قاضيا مفسرا . وفي سنة ١٩٤١ عين مديرا لمنطقة الباب بمحافظة حلب وقضى فيها سنتين . ونقل الى منطقة سلمية فاستقال من الوظيفة سنة ١٩٤٣ ، وعاد الى ممارسة المحاماة بدير الزور . والى جانب المحاماة عين محاميا لقضايا الدولة عدة سنوات . وعين عضوا في المجلس البلدي بدير الزور عام ١٩٤٤ . وهو عضو في عدة جمعيات علمية . لا ينتمي الى أي حزب سياسي .

حرص على الاسهام بنشر الثقافة في بلده لشدة حاجته اليها، فكان يلقي محاضرات في النوادي والمتنزهات العامة (الجراديق) . وطبع نشرات على نفقته ووزعها بالمجان . وأسس نادي « البيت الثقافي » بدير الزور سنة ١٩٤٤ ، وأداره . وكان يلقي فيه محاضرات في تاريخ دير الزور ووادي الفرات . وكان يضم مكتبة تحتوي على آلاف الكتب قدمها المترجم له هدية للنادي . وكان فيه تسع غرف كبيرة وباحة واسعة ومسرحان صيفي وشتوي . وكان يمثل عليه (كما يذكر الاستاذ عياش) صديقه الاستاذ اسماعيل حسني . وقد اغلق حسني الزعيم هذا النادي عام ١٩٤٨ فيما اغلق من النوادي بسورية . ومكان النادي ملك للاستاذ عياش .

وفي سنة ١٩٤٥ اصدر مجلته « صوت الفرات » . لتكون أداة لنشر الثقافة في دير الزور وفي منطقة الفرات. وهي أول مجلة ثقافية تصدر بدير الزور وقد اقتصرت مقالات هذه المجلة على التعريف بحضارات وادي الفرات وتاريخ مدنه . ووصف اقتصاده . وتدوين تراثه الشعبي وابرازه . يقول الاستاذ عياش بهذا الخصوص : « ان معالم وادي الفرات ـ القسم السوري، او الفرات الاعلى، ما زالت غير واضحة وشبه مجهولة من السوريين وابناء الاقطار العربية ، بسبب ندرة ما كتب عنه .

ليس بين كل الوديان التي تضاهي وادي الفرات مساحة ، وغزارة مياه وخصوبة ارض ، وتاريخ مجيد وحضارات مشهورة قديمة ، بلد ناله من اهمال الباحثين والكتاب ، في العصور الحديثة ، ما نال وادي الفرات وسكانه من الاهمال ، في الوقت الذي كتبت تواريخ الاقوام القديمة والحديثة ، ووصفت حياتهم الاجتماعية .

ودونت فنونهم الشعبية ، ولم يكتب تاريخ وادي الفرات في هذا القسم مع أهميته الكبيرة . ولا دونت فنونه ومأثوراته ، ولا درست ووصفت أوضاعه وتطوره ومشاكله (1) » .

وهذا ما دفع الاستاذ عياش للاهتمام باظهار تاريخ وادي الفرات . وقد ثبتت مجلة صوت الفرات كل هذه المدة أي مدة (٢٨) عاما برغم العقبات العديدة ، محافظة على خطتها ومستواها . تشكل مجموعة اعدادها المرجع الوحيد في اللغة العربية عن شؤون الفرات بسورية . واشترى لهذه المجلة مطبعة سنة ١٩٤٧ ، وانشأ دارا للنشر في دير الزور باسم « دار الفرات للنشر » . واعلنت عن اسماء الكتب التي ستصدر عنها . وجميعها عن الفرات . لكن حسني الزعيم رئيس الدولة اغلق المجلة والمجلات والصحف السورية سنة ١٩٤٨ فباع المطبعة في حلب وتوقف مشروع دار النشر التي كانت دير الزور محتاجة اليها . وما زالت أشد حاجة اليها .

والاستاذ عبد القادر من هواة زيارة الآثار القديمة . ولقد زار العديد من المعالم الاثرية في البلاد العربية والعالم ، وانشأ في بيته متحفا صغيرا للعاديات والتقاليد الشعبية ١٩٥٧ ، تخلو دير الزور من متحف غيره ، كتبت الصحف عنه . وذكره الاستاذ محمد ابو الفرج العش محافظ متحف دمشق في كتابه « آثارنا » ، واسس جمعية العاديات في دير الزور سنة ١٩٥٨ ، ما زالت قائمة ، هي الثانية في سورية . وانشأ مركز الدراسات التاريخية والجغرافية بدير الزور بنفس السنة ، ما زال قائما ، زيارة المتحف مسبلة للجميع في كل الاوقات .

وقد اشترك بالمؤتمر العربي الثاني للاثار ، الذي عقد ببغداد في اواخر سنة ١٩٥٧ ، وتلقى دعوات للاشتراك بمؤتمرات الآثار العربية. وتلقى دعوة للاشتراك بالمؤتمر الخامس للاثار في البلاد العربية الذي تقرر عقده في القدس بين ٣ ـ ١٣ حزيران ١٩٦٧ واشترك بمؤتمر الآثار الكلاسيكية التاسع الذي عقد بدمشق عام ١٩٦٩ . توفيت زوجته عام ١٩٦٣ ، لم يتزوج بعدها .

كما اشترك اخيرا في المؤتمر الدولي للتاريخ والآثار بدعوة من الجمعية العراقية في بغداد بتاريخ ٣٥ ـ ٣ ـ ١٩٧٣ ، والقى فيه محاضرة .

ولا تزال تصدر مجلة صوت الفرات في دير الزور . وهي ثقافية شهرية محافظة على خطتها ، تجنح الى الدراسات الاتنوغرافية والتاريخية والفولكلورية . وتكاد تنفرد بهذين اللونين من الدراسات من بين جميع المجلات العربية .

وقد نظم عددا من المعارض في دير الزور . نذكر منها على سبيل المثال معرض الصور عن البلاد العربية عام ١٩٤٦ في نادي « البيت الثقافي » والثاني معرض الكتاب الفراتي سنة ١٩٦٠. بمناسبة ١٧ نيسان . وفي عام ١٩٧٣ اقام له المركز الثقافي بدير الزور معرضا لكتبه ومؤلفاته التي زادت على ١٣٢ كتابا وكراسا ودراسة كلها عن وادي الفرات . بالاضافة الى أبحاث طريفة ونادرة . نذكر منها على سبيل المثال : « الحدائق العامة » ـ « التحية والسلام » ـ « اصابة العين » ـ « تقديس المياه » ـ « متع روحية » ـ « البيت في حياة العرب » ـ « الحلي والوشم والتبرج » ـ « المعارض العامة » ـ « المتاحف واهميتها » ـ « هواية طوابع البريد » ـ « البئر في حياة العرب » ـ « الاسطورة في حياة الشعب » ـ « العصا في حياتنا وتراثنا » ـ « المصيبة في حياة العرب » ـ « الطير في حياتنا وتراثنا » ـ « التبغ في حياة الناس » ـ « الملح في حياتنا وتراثنا » ـ « الذئب في حياتنا وتراثنا » ـ « الحية في حياتنا وتراثنا » ـ « النار في حياتنا وتراثنا » ـ « في المانيا الديمقراطية » رحلة ـ « اليد في حياتنا وتراثنا » ـ « القمر في حياتنا وتراثنا » ـ « الماء في حياتنا وتراثنا ، جزء اول وثاني » ـ « الحماسة في حياتنا وتراثنا » ـ « الابل ثروة أضعناها » ـ « الغزال ثروة ابدناها » ، وكل هذه الابحاث والدراسات والكتب هي أبحاث ودراسات تكاد تكون نادرة وطريفة .

وصدر له اخيرا : « من ملامح وادي الفرات في القديم والحديث » ـ و « قرقيسيا » قرية البصيرة قاعدة وادي الخابور ـ « والرحبة » قاعدة طريق الفرات بلدة الميادين حاليا بمحافظة دير الزور بسورية و « حكايات من وادي الفرات وطن الاساطير والخرافات» وهو مجموعة حكايات شعبية في الفرات و « منطقة البوكمال في محافظة دير الزور وسورية » .

ويقول الاستاذ محمد العدناني في مؤلفات المترجم له : « ان مؤلفاتك ذكرتني بجهد النحل ، الذي يحط على أزاهير الرياض ، ليشتار من كؤوسها قطرات الشهد، ويجمعها في قرص هندسي دقيق جميل ، كما جمعت معلوماتك الخالدة عن وادي الفرات ، ووضعتها في موسوعتك ، التي تمتعنا بطلاوة مادتها ودقتها ، وحملتنا جميعها على ان نشهد لك بالفضل الكبير على سكان وادي الفرات كافة ، بتسجيلك تاريخهم العريق ، الذي كاد الاهمال والنسيان يطمسان معالمه .

واشكر أيضا للسيد يعرب السيد ، ابن دير الزور البار ، اجادته وصف « متحف التقاليد الشعبية في دير الزور » الذي أسسته وحدك بعرق الجبين وسهر الليالي، حتى أصبح محط انظار السائحين ، وكل من يزور مدينتك الخالدة (٢) » .

١ ـ انظر صفحة (٦) من مجلة « العمران » عدد خاص عن دير الزور عام ١٩٧١ ، مقال للاستاذ عبد القادر عياش بعنوان « وادي الفرات في القطر العربي السوري » .

٢ ـ مجلة الاديب ـ العدد الصادر في ابريل (نيسان) ١٩٧٣ .

أما الاستاذ رشاد علي أديب فيحدثنا عن الاستاذ عبد القادر فيقول : انك لا تفتأ جاهدا منذ امد بعيد بتصنيف البدائع من التراث الشعبي (الفولكلوري) في وادي الفرات واليك هذه الابيات مما قاله : (٣)

أعياش أبدعت في كل ما — كتبت وصنفت عن شعبنا
أنالك ربك خير الجزاء — وأكرم به جازيا محسنا
صديقي أبثك مني السلام — وأصفى الوداد وأوفى الثنا

أما الاستاذ كوركيس عواد فيقول « قليل من الباحثين من قد أوتي حظ اختيار الموضوعات الطريفة النافعة ، بمثل ما أوتي الاستاذ عبد القادر عياش » .

وعندما يتحدث الاستاذ عبد الغني العطري عن المترجم له يقول : « أما المؤلف فقل من يجهله في العالم العربي ، بعد ان وقف جهده ، ونذر ماله ووقته لخدمة منطقة الفرات ، وانصرف بكل ما يملك من نفس ونفيس الى التنقيب عن العادات والتقاليد الشعبية في الفرات ، فلم يترك بابا الا طرقه ، ولا سبيلا الا سلكه ، ولا موضوعا الا عالجه ، حتى بات ما كتبه وألفه موسوعة تخلد منطقة الفرات ودير الزور عامة (٤) .

واذا اردنا ان نقدم كلمات اخرى ذات شأن كبير في الاستاذ عبد القادر نقدم ايضا ما قاله الاستاذ حامد حسن : « من أراد ان يجمع التاريخ ـ واخص تاريخ وادي الفرات والجزيرة الفراتية ـ في حقيبة ، ويرى امة في رجل ، فليقرأ ما دبجته يراعة العلامة عبد القادر عياش ، ولينظر اليه ، ومع أن هذا الرجل العلامة يعيش بين ظهرانينا ، ويعمل صامتا فاننا لم نستطع الانتفاع بهذه الثروة ، وننعم بهذا العطاء . ولعل أهل النعيم أقل احساسا بالنعمة وشعورا بها وتقديرا لها » .

أما المؤرخ فيليب حتي فيقول « عزيزي الاستاذ عبد القادر عياش : رجعت الى مقري ورأسي محشو بتذكارات مقابلات لا عداد لها مع ادباء واساتذة ورجال حكومة .. الخ ولكن تلك المقابلة المتواضعة في دمشق مع فرد من بني قومنا في زاوية جغرافية نائية شاذ عن القاعدة لا يكرس وقته وقواه وماله لنفسه ولذويه ، بل يضع بعضه في خدمة ابناء بلدته ووطنه دون تعويض سوى لذة الخدمة والفائدة ـ حقا ان تلك المقابلة لم يزل اثرها حيا مستحبا في ذاكرتي وسيبقى كذلك الى أمد بعيد ولا سيما وان ذاكرتي محشوة بآثار الخنفشاريات التي سمعتها والخطط العنترية التي أصغيت اليها والسفسطات الخطابية التي تعرضت أذني لها فهنيئا لك في عملك وانت لا تحتاج الى تنشيط فيه . والامل في استيقاظ شعبنا لا يزول ما دام بينهم من امثالك » .

اما امين عام مجمع اللغة العربية في القاهرة الدكتور ابراهيم مدكور فيقول في دراسات الاستاذ عياش : « انها دراسات خليقة بالتقدير ، بل الاعجاب ، وحبذا احتذاؤها في ارجاء الوطن العربي ، فهي للمؤرخ ليس عنها غناء ، وللباحث الاجتماعي ضوء كاشف عن العادات والتقاليد والاعراف . وهي فوق هذا وذاك صفحات ممتعة للقارىء بوجه عام » .

ويتحدث الدكتور نور الدين حاطوم عن التحف الاثرية التي يهتم بها المترجم له فيقول « كما اعجبت بمجموعاته الاثرية عن المنطقة التي تستحق ان يفرد لها متحف خاص لاظهار جمالها الفني وقيمتها العلمية والاثرية » .

ويظهر لنا الدكتور نبيه العاقل مزية اخرى في الاستاذ عبد القادر فيقول : « احيي فيكم العالم الصامت الذي ما لبث منذ سنوات طويلة يقدم الخدمة تلو الخدمة لتاريخ بلده لا يرجو من وراء ذلك جزاء ولا شكورا » (٥).

واذا اردت اخيرا ان انصف البحاثة عبد القادر عياش بكلمة اقول : عرفت هذا الانسان قدوة للعالم والمفكر في صبره وجلده في سبيل الوصول الى نشر المعرفة ، فهو شعلة متوقدة من الذكاء والنشاط والحيوية فتارة تراه بحاثة تاريخيا يجمع كتب التاريخ والمراجع وينقب عنها . ومرة تراه بحاثة شعبيا (فولكلوري) يبحث عن الدراسات الشعبية الطريفة ، ليدرسها ويقدم فيها كل جديد . وفي مجال آخر تراه بحاثة ادبيا يهتم بالدراسات الادبية والنقد والشعر . واذا حدثته في هذا المجال تراه مطلعا زاخرا . واذا حدثته بالعلوم تجده قد طالع ما نشر في المجلات العلمية بنهم وعلق عليه .. واذا أردت ان تعرف ما هي المؤلفات الحديثة والتيارات الفكرية العالمية فاسأله تجد عنده خبر اليقين . حديثه الدائم عن الندوات الادبية والعلمية والمعارض الفنية والتيارات الفكرية والشعر والنشر .. والحقيقة التي يجب ان تقال ، فان عبد القادر عياش موسوعة زاخرة في اعماله ومؤلفاته (٦) ويعنى بوضع موسوعة عن وادي الفرات .

دمشق — حسان الكاتب

---

(٣) مجلة الاديب ـ ج٩ ، السنة ٣١ ، عام ١٩٧٢ .

(٤) مجلة الاديب ـ عدد يناير (كانون الثاني) عام ١٩٧٣ .

(٥) أنا والفرات ـ للاستاذ عبد القادر عياش ـ دير الزور ، عام ١٩٦٧ ، صفحة (٣٣) .

(٦) وان من المؤلفات الهامة التي يعدها الاستاذ عبد القادر « معجم الكتاب السوريين في القرن العشرين » . وهو يبذل في سبيل تأليف هذا الكتاب نشاطا جبارا للاتصال بالكتاب السوريين والحصول على تراجمهم ، اذ انه سيضمن في هذا المعجم ترجمة كل من له مؤلف مطبوع في سورية خلال القرن العشرين باستثناء الكتب المدرسية . ويعمل فيه منذ ثلاث سنوات .